انشودة النبع

.. ولم يسمع الكون غير بكاء ضعيف مهدج
لطفل صغير
وام تهدهد من طفلها
تغني له اغنيات الامل
وفي صوتها بحّة مجهدة
وفي عينها دمعة حانية
وتضرب عكازها في الصخور
بظهر الجبل .
وتهبط خطواتها في الرمال
بسفح الجبل
تسير تسير لئلا تموت
وذا طفلها ليس يدري المصير
وليس يحس الحنان الجريح
ويحفزه ظمأ قاتل
فيبكي بصوت ضعيف
ويأتي الصدى من بعيد بعيد
برجع أسيف
يشق عباب الظلام المخيف
الى ان تكل الخطا المجهدة
ويبدو المصير على مقربه
ويخفت صوت البكاء المهدج
ويذوي الامل .
.. وتلتقط الام انفاسها
وتضرب في الارض عكازها
وتفترش الرمل بين الصخور
تضم الى صدرها طفلها
في حنان اخير
فيسكته الوهم في صدرها
ويروي ظماه
ويستشعر الدفء في صدرها
ويملأ جفنيه نوم عميق .
.. وتشخص عينان نحو السماء
يشق بريقهما الظلمات
وتسمع نجواهما الآسية .
ويذوي البريق بريق العيون
وراء الجفون .
وحين يعود الظلام الكثيف
ينام الوجود .
وتطلع شمس الصباح الاليق
لتستقبل الكون في بهجته
بميلاد نبع !
ليَرْوِ النبي الصغير صداه
وَتَرْوَ الصخور وترو الرمال ..
وتمضي الحياة بدفع جديد
أتى من هناك !
من النبع ، من قوة خارقة
من المعجزة
من الظلمات
من البحة المجهدة
من الدمعة الحانية
من الصوت صوت البكاء المهدج
بكاء النبي
من العطف ، من رحمة خارجة
هناك
أتى من هناك
لتمضي الحياة ويَرْوَى الظماء
ويحيا الامل .

• • •

وجاء الى النور خَلْق كثير
وعاشوا وماتوا
ولم يعرفوا النور أنى يجيء
وكيف يجيء .
وكانت لديهم مياه كثيرة
فلم يظمأوا .
ومن بينهم كان طفل كبير
يحس النضوب
يحس الفراغ
وتقهره رغبة صارخة
فيودع إزميله جعبته
ويخرج في الظلمة الموحشة
وفي يده شمعة ذاوية
وفي عينه لمعة بارقة
وفي جيبه بضعة من نقود .
ويمضي يسير
وفي جيبه كان رتق قديم
وتنضب شمعته الذاوية
ويخبو البريق بريق العيون
وراء الجفون
ويذوي الأمل .
وحين تكل خطاه ينام .
ويحلم بالنبع في نومه
لقد أدرك النبع في رأسه
هناك قريباً وراء العظام
هناك شرارة كل ضياء
هنالك ريٌّ لكل الظماء
هنالك خَلْق
هناك الحياة .

كان نُقّاد العرب في العصور الثانية والثالثة والرابعة للهجرة ينقدون ؛ وقد خلدت اسماء وآثار كثير من النقاد وبقيت في تاريخ الادب العربي على مرور الزمن امثلةً تُردد ومقاييس تحتذى .

ويُلاحظ ان نقد الاثر الادبي كان يذهب في يسر وإيجاز وكان ينزع قوسه راميا به في راحة وطمأنينة تامتين ؛ فما مردّ ذلك وماسببه؟ وما هي العوامل التي كانت تتيح وتبيح للناقد هذا اليسر وتلك السهولة في كثير من الاحيان ؟

لقد كان قلم الناقد في هذه العصور الثلاثة ينظر الى الاثر الفني من ناحية واحدة ، وكان يُطل عليه من زاوية معيّنة ؛ إذ كانت الامة العربية قد استجمعت اشدها وبلغت من الكمال السياسي والاجتماعي والدولي ما يسّر للشعراء واتاح للأدباء ان يكتبوا وينظموا في مواضيع ذاتية بحتة وان يكون المثل الأعلى الفني هو المنشود وحده دون سواه في نظر الناقد .

فكان على الشاعر أو الكاتب ان يكون مجوّداً موضوعه بالغاً به القمة دون النظر الى الناحية الموضوعية التي ولدت في هذا العصر وهيمنت عليه وبدت على آفاقه فارضةً نفسها فرضاً .

ولكن أهمّ ما يميز العصر الحاضر ان مهمة الكاتب أو الشاعر أو الفنان هي مهمة توجيهية تتلخص في شرح الحوادث وتصويرها بأمانة ودقة وتسديد خطى الشعب والامة بدل ان تغنّيها وتلهيها وتسكب في مسامعها ونفسها من اريج الفن اللاهي وعطر الادب السادر وشذى الجمال العابث ما يرفه عنها ويزيح الضجر ويبعد عنها كابوس التراخي والكسل والانزواء .

إن الامم تمر في مراحل ادبية معيّنة كما تمر في مراحل سياسية معينة ، وان الامم تشبّ وتجتاز سنين معينة كأدوار

ومرت به نسمة باردة
أزاحت مع الصبح سجف الظلام
وأمسك إزميله في يده
وقدّ من الصخر تمثال نبع !
تمثّله امرأةً عاريه
سوى من غلاله
تظلل من جسمها صدرها
تقول : هنا النبع !
وتمضي الحياة بنور جديد
أتى من هناك
من النبع ، من لمحة خاطفة
من الرغبة الصارخه
من الومضة الملهمه
من السر يكمن خلف الغلاله
من النبع في رأس طفل كبير
هناك
اتى من هناك
لتمضي الحياة ويروى الظماء

ويحيا الامل .

• • •

وبالامس كنا نجوب الحديقه
انا والحبيب
ويمشي سوانا بأرض مهاد
ورحنا نصعّد في رابية
بعيداً عن الناس والسائرين
وأحكي لها قصة المجهدين
وأقدامنا تشتكي من كلال
وشمس الظهيرة تشوي الوجوه
وتعثر اقدامنا في الحشائش
ويجري العرق .
وحين نَقِرُّ على الرابية
تظللنا كرمة وارفة
ويأتي إلينا نسيم لطيف
ونبصر نافورة من بعيد
فأحكي لها قصة المجهدين
واسطورة النبع نبع المياه
جرى في الصخور وبين الرمال .
وروّى الظماء .
واسطورة النبع نبع الحياه
بتمثال فن
وادفن رأسي في صدرها
كما يصنع الطفل في صدر امه
أفتش عن نبع ..
وحين اعود الى مكتبي
أسطّر انشودتي في الورق
واكتب : نبع !
وتمضي الحياة بدفع جديد
من الوهم ، من لفظة مبهمة .
وأمضي اسير مع المجهدين
لنبحث عن نبع
هناك ، هنالك
هنالك نبع
ونحن نسير .

القاهرة

عز الدين إسماعيل
عضو الجمعية الادبية المصرية